صورة الظاهر بيبرس في شعر شهاب الدين العزازي (دراسة موضوعية)

د. إبراهيم موسى إبراهيم سنجق

تاريخ الاستلام 2022/12/4
تاريخ القبول 2023/3/19

ملخص البحث

يُعدّ شهاب الدين العزازي أحد أبرز شعراء المديح في العصر المملوكي الأول، فقد أكثر من مدح ملوك الأيوبيين في حماة، لكنّه في الوقت نفسه كان مقلا في مدائحه التي امتدح بها سلاطين المماليك عامة والظاهر بيبرس خاصة، على الرغم من أنه كان يعيش بينهم.

فالشهاب العزازي لم تكن له علاقة مباشرة بالظاهر بيبرس، إنما يمكن القول: إنّ علاقته به اقتصرت على الإعجاب به وببطولته، وتمجيده كبطل مسلم أحرز الانتصارات على الأعداء وكسر شوكتهم، واحترامه وتقديره له نابع من كونه سلطان المسلمين، ويبدو هذا جليا في قصائده التي امتدحه بها.

وقد جاء هذا البحث ليلقي الضوء على شخصية الظاهر بيبرس، وليجلي صورته من خلال شعر العزازي، وكذلك ليسلط الضوء على صورة الفتح لدى الظاهر بيبرس، وصورة جيش الظاهر بيبرس، وصورة العدو المنهزم أمام الظاهر بيبرس.

وقد اقتصرت الدراسة في هذا البحث على دراسة شعر الشهاب العزازي دراسة موضوعية، مع بعض الإشارات الفنية التي تشير إلى الصور البيانية في بعض الأبيات.

وقد اتبع الباحث المنهج الوصفي، معتمدا على آليتي الاستقراء والتحليل، مع الاتكاء في بعض الأحيان على الحوادث والروايات التاريخية.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة، أنّ العزازي كان تاجر قماش غنياً، وهذا ما جعله بعيدا عن دائرة التكسب بشعره، وبالتالي أبعده عن الكذب، والنفاق للممدوح. وكذلك رسم العزّازي للظاهر بيبرس صورة إدارية بالإضافة إلى صورته الجهادية العسكرية. وبرع أيضا في تصوير العدو من خلال مشهدي السبي والأسر والفرار من المعركة.

وتبيّن من البحث أن شعر المديح عند العزّازي يعجّ بالصور البلاغية: التشبيهية والاستعارية والكنائية؛ لذا توصي الدراسة بدراسة شعره دراسة فنية مستقلة.

The image of Al-Zahir Baybars in the poetry of Shihab Al-Din Al-Azzazi.

Research abstract

Shihab Al-Din Al-Azazi is considered one of the most prominent poets of praise in the first Mamluk era. He praised more than the Ayyubid kings in Hama, but at the same time, he was limited in his praises, in which he praised the Mamluk sultans in general and Al-Zahir Baybars, although he lived among them.

Al-Shihab Al-Azazi did not have a direct relationship with Al-Zahir Baybars, but it can be said: His relationship with him was limited to admiration for him and his heroism, and his glorification as a Muslim hero who achieved victories over enemies and broke their power, and his respect and appreciation for him stems from his being the Sultan of the Muslims, and this appears evident in his poems that he praised him with. .

This research came to shed light on the personality of Al-Zahir Baybars, and to clarify his image through al-Azazi's poetry, as well as to shed light on the image of the conquest of Al-Zahir Baybars, the image of Al-Zahir Baybars' army, and the image of the defeated enemy in front of Al-Zahir Baybars.

The study in this research was limited to an objective study of the poetry of Al-Shihab Al-Azazi, with some artistic references that refer to graphic images in some verses.

The researcher followed the descriptive approach, relying on the two mechanisms of induction and analysis, while sometimes relying on historical incidents and narratives.

Among the most important results of the study is that Al-Azzazi was a rich cloth merchant, and this made him far from the circle of earning money with his poetry, and thus kept him away from lying and hypocrisy to Al-Mamdouh. Likewise, Al-Azzazi painted an administrative image for Al-Zahir Baybars, in addition to his military jihadist image. He also excelled in depicting the enemy through the scenes of captivity, and flight from battle.

The research revealed that Al-Azzazi's praise poetry is full of rhetorical images: similes and metaphors. Therefore, the study recommends an independent artistic study of his poetry.

المقدمة:

يُعدّ شهاب الدين العزازي أحد شعراء العصر المملوكي الأول، الذين نظموا في أغراض شعرية متنوعة، لكن كان له باع طويلة في غرض المديح، إذ يأتي غرض المديح في المقام الأول في ديوانه، فهناك عشرات قصائد المديح المبثوثة فيه، على الرغم من أنه لم يكن بحاجة إلى مدح الملوك والسلاطين وغيرهم بغية التكسب؛ لأنه كان تاجرا، -إذ كان له متجر قماش في مصر- وكانت تجارته تدر عليه المال الوفير. ([i]).

وقد أكثر العزازي من مدح ملوك الأيوبيين في حماة، على الرغم من أنه لم يكن بينهم إذ كان يسافر من مصر إلى حماة ليمدحهم؛ لأن علاقته معهم كانت وطيدة وكان مقربا منهم، فمدحهم بعشرات قصائد المديح، وفي نفس الوقت كان مقلا في مدائحه التي امتدح بها سلاطين المماليك عامة والظاهر بيبرس خاصة، على الرغم من أنه كان بين ظهرانيهم ([ii]). فسلاطين المماليك لم يكونوا يجالسون الشعراء ويستمعون إليهم.

فالشهاب العزازي لم تكن له علاقة مباشرة بالظاهر بيبرس، إنما يمكن القول إنّ علاقته به اقتصرت على الإعجاب به وببطولته، وتمجيده كبطل مسلم أحرز الانتصارات على الأعداء وكسر شوكتهم واحترامه وتقديره له، كونه سلطان المسلمين، ويبدو هذا جليا في قصائده التي امتدحه بها.

ومن المعروف عن الظاهر بيبرس أنه لم يكن يجالس الشعراء ويستمع إليهم، والدليل على ذلك أنّ ابن فضل الله العمري كان قد ذكر في كتابه (مسالك الأبصار وممالك الأمصار): أنّ "السلطان الملك الظاهر قد أمر بكسر أوعية الخمر، وشدّد فيها". ([iii]). فقال البوصيري وقتذاك:

نَهى السّلطانُ عن شُرْبِ الحُمَيّا ... وَصَيَّرَ حَدَّها حَدَّ الْيَمـاني
فما جَسَرَتْ جنودُ الجِنّ مِنْهُ ... لِخَوْفِ القَتْلِ تدخُلُ في القَناني

فبلغ الملك الظاهر بيبرس هذان البيتان، فقال حينها: "لو كنت أجتمع بشاعر، لكنت أجتمع بهذا"([iv]). يقصد الشاعر البوصيري.

---

[i] - انظر ترجمة الشاعر شهاب الدين العزازي في: ديوان العزازي، حققه وقدم له الدكتور رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، الطبعة الأولى،2004 ص 11-14. وفي ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، (د.ت) (ج214/9). والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه دكتور محمد محمد أمين، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ت) (ج362/1-373). والصفدي، صلاح الدين خليل: أعيان العصر وأعوان النصر، حققه د. علي أبو زيد، د. نبيل أبو عمشة، د. محمد موعد، د. محمود سالم، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى،1998 (ج269/1). والوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2000 م، (ج148/7- 156).

[ii] - انظر: العزازي: ديوان العزّازي، ص 19.

[iii] - العمري، ابن فضل الله: شهاب الدين أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010 م، (ج243/18).

[iv] – العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار وممالك الأمصار، (ج243/18).

وتتناول الدراسة في هذا البحث جميع قصائد الشهاب العزازي التي يمتدح فيها الظاهر بيبرس، ويبرز بطولاته في المعارك، ويسجل انتصاراته فيها على العدوين: الفرنجي والمغولي ويسجل مناقبه الحسنة. وعددها أربع قصائد.

القصيدة الأولى تتكون من ثلاثة وثلاثين بيتا، نظمها ممتدحا الظاهر بيبرس الذي كسر الفرنج في معركة (سيس)([v])

وتتكون من المحاور الآتية: صورة الظاهر بيبرس، وصورة جيش الظاهر بيبرس، وصورة الفتح، وصورة العدو الفرنجي. القصيدة الثانية تتألف أيضا من ثلاثة وثلاثين بيتا، نظمها العزازي بمناسبة فتح أنطاكية ([vi]) وانتصار الظاهر بيبرس على الفرنجة، وهزيمتهم هزيمة نكراء، وتتألف من المحاور الآتية: صورة البطل الظاهر بيبرس، وصورة جيش الظاهر بيبرس، وصورة العدو الفرنجي، وتحدث العزازي عن يوم الفتح في هذه القصيدة ببيت واحد فقط.

القصيدة الثالثة تتألف من ثمانية وثلاثين بيتا، نظمها شهاب الدين العزازي بمناسبة انتصار الظاهر بيبرس في معركتين: الأولى على الفرنج في معركة قيسارية الشام ([2])، والثانية انتصاره على التتار والروم معا في معركة الأبلستين ([3]).

---

[v] - معركة (سيس) معركة شهيرة، حصلت سنة 664هـ، حيث جرّد الظاهر بيبرس حملة للإغارة على سيس، وانطلق في هذه الحملة الملك المنصور ملك حماة في جيشه، كما قدّم الظاهر بيبرس على العسكر الأمير سيف الدين قلاوون، فدخلها المقاتلون المسلمون، وخرّبوها وجعلوها خاوية على عروشها، ومكث المقاتلون فيها أياما يحرقون ويقتلون ويأسرون، وأسر الملك (ليفون) صاحب سيس وابن عمه، وعاد المسلمون بالغنائم الكثيرة.ومدينة سيس من أعظم مدن الثغورالشامية بين أنطاكية وطرسوس. انظر: الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت) مادة (سيسيّة) ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، الرياض، الطبعة الأولى، 1976م، ص 269-273. والمقريزي، تقي الدين أبو العبّاس أحمد بن علي بن عبد القادر: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،1987 م، (ج37/2). وابن تغري بردي: المنهل الصافي، حققه ووضع حواشيه د.نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985 (ج454/3).

[vi] - تم فتح أنطاكية سنة 666هـ، إذ قامت العساكر الإسلامية بالزحف صَوْبَها، فتسوروا أسوارها، ثم نزلوا فيها، فهرب أهلها إلى القلعة (قلعة أنطاكية)، فبدأت العساكر بالقتل والأسر والنهب، وما رُفع السيف عن رجل فيهم إذ قُتل خلق كثير فيها، واحتشد بالقلعة ثمانية آلاف مقاتل من الفرنجة عدا النساء والأطفال، فمات أكثرهم من الاحتشاد، ونفد الماء والمؤونة في القلعة فطلب أهلها الأمان وأن يُؤخذوا أسرى، فاستجاب لهم الظاهر بيبرس. انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص 307-309. وأبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، تحقيق: د. محمد زينهم محمد عزب، والأستاذ يحيى سيد حسين، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، (د.ت) (ج10/4). وابن تغري بردي: المنهل الصافي، (ج454/3).

[2] - وقيْسارِيّة: (بالفتح ثم السكون، وسين مهملة، وبعد الألف راء، ثمّ ياء مُشدَّدة)، بلد على ساحل بحر الشام، تُعدّ في أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، مادة (قيسارية).

ومعركة قيسارية الشام حدثت سنة 663 هـ، نزل السلطان الظاهر بيبرس عليها وحاصرها مع جيشه، فحرقوا أبوابها وهتكوا حجابها، فهرب أهلها إلى قلعتها، وشدّد جيش الظاهر الخناق عليها، فما كان من الفرنج إلا أن ولوا الأدبار، عندئذ تسلق المسلمون أسوارها، وهدموا مبانيها، وهي أول فتوح الظاهر بيبرس. انظر: العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، دار الكتب القومية، القاهرة، 2010 م، (ج396/1-397). وأبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر، (ج7/4).

[3] - الأبلستين: مدينة مشهورة في بلاد الروم، وهي الآن بيد المسلمين وسلطانها، ولد قليج أرسلان السلجوقي، قريبة من أبسس مدينة أصحاب الكهف. انظر: الحموي، معجم البلدان، مادة (أبلستين).

وتتألف هذه القصيدة من أربعة مضامين: صورة الفتح، وصورة السلطان الظاهر بيبرس، وصورة الجيش المسلم، وصورة العدو.
القصيدة الرابعة، وعدد أبياتها مئة وتسعة أبيات، ومناسبتها أنّ أمراء الدولة الظاهرية استدعوا الشاعر شهاب الدين العزازي، وطلبوا منه أن يعارض معلقة الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم، التي مطلعها:

ألا هُبي بصَحْنِكِ فاصْبَحينا ولا تُبْـقي خُمـورَ الأنـدَرينـا

في قصيدة يصف فيها: وقائع الترك، وفتوحاتهم وغزواتهم، وأسماء الحصون والقلاع التي فتحوها، وكسر العساكر التي لقوها، وأسماء ملوكهم وملوك غيرهم من الطوائف، وأن يكون العزازي لسان حالهم في افتخارهم على غيرهم من الطوائف، ومدح الملك الظاهر بيبرس وولده الملك السعيد. ([vii]). وقد تكونت هذه القصيدة من المضامين الآتية: فخره بالأتراك وبالمماليك أتباع الملك الصالح نجم الدين أيوب، وصورة الظاهر بيبرس، وصورة جيش الظاهر بيبرس، وصورة العدو: الفرنجي والمغولي.
وتعدّ هذه الدراسة التي في هذا البحث من الدراسات البكر إلى حدّ ما؛ إذ لم أعثر إلا على دراسة وحيدة لشعر العزازي سبقت هذه الدراسة، وهي: رسالة ماجستير، بعنوان: "شعر شهاب الدين العزازي 633- 710هـ، دراسة موضوعية فنية"، تحدثت الباحثة في الدراسة الموضوعية عن الأغراض الشعرية المختلفة التي في ديوانه، من: مديح، ورثاء، وغزل، ووصف، وحنين، وغيرها.
وعند تناول الباحثة لغرض المديح ذكرت أنّ العزازي أكثر من قرض غرض المديح، فله ما يربو عن مئة مديحة ومقطوعة، جلها في مدح ملوك حماه من الأيوبيين، وكذلك مدح ملوك وسلاطين المماليك والوزراء والقضاة ببعض القصائد ([viii])
وذكرت الباحثة أنّه "عندما يمدح العزازي سلاطين المماليك يكون ذلك في المناسبات العامة، حتّى أنّه لا ينشدها في حضرة السلطان نفسه، بل يهدف بها إلى تسجيل الأحداث، والإشادة بحماية ركن الدين، ومواجهة الأعداء، وإجابة داعي الجهاد". ([ix])
ولم تورد الباحثة من قصائد العزازي الأربع التي مدح فيها الظاهر بيبرس وسجل انتصاراته على الأعداء في رسالتها، سوى ثلاثة أبيات أوردتها في باب الدراسة الموضوعية، في سياق حديثها عن صفات الشجاعة والعدل التي تحلّى بها السلطان الظاهر بيبرس ([x])

ومعركة الأبلستين معركة شديدة انكسر فيها التتار شرّ كسرة، قُتلوا وأُسروا ومن نجا منهم فرّ إلى أعالي الجبال، انظر تفاصيل هذه المعركة في
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (ج7/ 168-170). واليونيني، موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدين، الهند. الطبعة الأولى، 1960، (ج3/ 175-178).

[vii] - انظر: العزازي: ديوان العزازي، ص 134.

[viii] - أماني بنت محمد بن عبد العزيز الشيبان: شعر شهاب الدين العزازي – دراسة موضوعية فنية، 633 – 710 ه، رسالة ماجستير، الرياض – السعودية، 2008 ه، ص 46.

[ix] - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[x] - المرجع نفسه، ص 48 – 49.

والدراسة في هذا البحث مخصصة للدراسة الموضوعية التي تخص المضمون، لكنّي سأكتفي ببعض الإشارات إلى الأبيات التي تشتمل على الصور الكنائية في صورة الظاهر بيبرس، والأبيات التي تشتمل على التشبيه المركب أثناء الحديث عن صورة جيش الظاهر بيبرس؛ لأن العزّازي استخدم هذين النوعين من الصور البيانية بشكل لافت للنظر.
اعتمد هذا البحث المنهج الوصفي، معتمدا على آليتي الاستقراء والتحليل، مع الاتكاء في بعض الأحيان على الحوادث والروايات التاريخية.

مضامين قصائد العزازي

أولا: صورة الفتح.

لقد خصّص العزازي بعض الأبيات في قصائده للحديث عن فتح الظاهر بيبرس للمدن والقلاع التي كانت بحوزة العدو سواء الفرنجي أم المغولي، والتي استطاع أن ينتزعها من يده بالقوة.
فالعزازي في القصيدة الأولى التي يتحدث فيها عن انتصار الظاهر بيبرس في معركة سيس، يحمد الله تعالى على تسهيل فتح مدن وقلاع أهل الكفر، يقول:

فالحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمينَ على تَسهيلِ فَتْحِ قلاعِ الكُفْرِ والمُدُنِ [xi]

وليس غريبا أن يفتح الظاهر بيبرس مدن وقلاع العدو بكل يسر وسهولة، فقد كان ملكا مجاهدا وقائدا شجاعا، سريع الحركة، يقود الجيوش ويقاتل كما يقاتل جنوده. يقول ابن تغري بردي عن الظاهر بيبرس: "وكان الملك الظاهر -رحمه الله- ملكا شجاعا مقداما، غازيا مجاهدا مرابطا، خليقا بالملك، خفيف الوطأة، سريع الحركة، يباشر الحروب بنفسه".[xii]
وتحدث العزازي عن سرعة انتشار فتوحات الظاهر بيبرس وانتصاراته في معاركه التي خاضها ضد الأعداء، فمعركة سيس التي انتصر فيها الظاهر بيبرس على الفرنج عمَ خبرها أقاصي البلاد سريعا، ولم يسمع الناس أجمل من هذا الخبر؛ لأنه بشّر بانتصار المسلمين في هذه المعركة. يقول:

يا يَوْمَ وَقعةَ سيسٍ سارَ ذكرُكِ في أقصى العراقِ وأقصى الصّينِ واليَمَنِ
جاءَ الكتابُ بنَصْرِ المُسلمينَ فَلا واللهِ ما جازَ أحلى مِنْهُ في أُذُنِ [xiii]

وذكر أيضا أنّ فتوح الظاهر بيبرس في قيسارية الشام والأبلستين انتشر خبرها بين المسلمين، فانتشرت رائحة النصر في بلاد الشام، وبَدَتْ أعلام النصر برّاقة لامعة، يقول:

فُتوحُ يَخُصُّ المسلمينَ عُمومُها لَها بارقاتٌ بالشآمِ نَسيمُها [xiv]

[xi] - العزازي: ديوان العزازي، ص 125.
[xii] - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (ج7/ 177).
[xiii] - العزازي: ديوان العزازي، ص 126.
[xiv] - العزازي: ديوانه، ص 131.

وقد عبّر الشهاب العزازي عن اغتباطه وفرحه بفتح أنطاكية، فيرى أنّ يوم فتح أنطاكية كان يوما مباركا، ويوما سعيدا على الناس، يقول:

كانَ يومٌ مُباركٌ فَتْحَ أنطا كيَّةَ لِلْورى وَوَقْتٌ سَعيدُ [xv]

وتحدث العزازي عن أثر الفتح على المسلمين وعلى العدو، وذلك في معركتي قيسارية الشام والأبلستين، أما أثر هذا النصر على المسلمين، فيذكر الشهاب العزازي أنه بهبوب النسائم العليلة من أرض المعركة التي انتصر فيها الظاهر بيبرس في قيسارية الشام، انتعشت نفوس المسلمين الحزينة المتعطشة لهذا النصر وارتاحت. وقد سُرّ الناس كثيرا عندما جاء رجال البريد على خيولهم، ([xvi]) يبشرون الظاهر بيبرس بهذا النصر.
وبهاتين الوقعتين أعاد الظاهر بيبرس مجد الفتوحات الإسلامية، وكُشفت الغُمّة وتلاشت هموم الناس ومتاعبهم، يقول:

فيا بَرْدَ أكبادٍ حِرارٍ تَرَوَّحَتْ وَقَدْ هَبَّ مِنْ أرْضِ الشَّمالِ نَسيمُها
وَمُذْ قَدِمَتْ خَيْلُ البريدِ بِنَصْرِهِ تُبَشِّـرُهُ سَـرَّ الأنامَ قُـدومُـها
وَعادَ فتوحُ المُسلمينَ كما بَدا بِهِ وانجَلَتْ عَنْ كُلِّ نَفْسٍ هُمومُها [xvii].

حتى البلاد الإسلامية الأخرى تأثرت بهذا الفتح، فأبدى أهل العراق رغبة في الانقياد للظاهر بيبرس، وودّ كل ساكن في العراق لو يطير تشوقا للظاهر بيبرس ولفتوحاته. ولو يستطيع أهل بغداد الارتحال عنها بعد سماعهم بهذه الانتصارات المتوالية لحثوا الخطى، وأسرعوا نحو أرض هذه الفتوحات التي تمت على يد الظاهر بيبرس. يقول:

ومَدَّتْ لَهُ أهلُ العراقِ عِنانَها وَوَدَّ اشتياقا لَوْ يَطيرُ مُقيمُها
وَلَوْ أنَّ بغداداً تُطيقُ تَرَحُّلاً لَجَـدَّ بِها إرقالـها وَرَسـيمُها [xviii]

والعزازي في خطابه الشعري هذا له بعد نفسي، إذ يكشف عن حجم تعاطفه مع إخوانه المسلمين في العراق عامة وفي مدينة بغداد خاصة، فقد شهدت بغداد مجازر مروعة قام بها المغول، وسالت دماء المسلمين في شوارع بغداد، ولم يسلم من بطشهم الشجر والحجر، حتى الكتب والمكتبات لم تسلم من همجيتهم. لكن بدا تأثير هذه الفتوحات والانتصارات في معركتي قيسارية

[xv] - المصدر نفسه، ص 129.
[xvi] - انظر: ابن عبد الظاهر في: الروض الزاهر في أخبار الملك الظاهر، أثناء حديثه عن تطوير الظاهر بيبرس للبريد في عهده، بحيث أصبح سريعا وذا مصداقية، واستطاع بيبرس ترتيب أمور بلاده والقلاع، وأكثر ممالكه بفضل ترتيبه البريد. ص 95.
[xvii] - العزازي: ديوان العزازي، ص 132 – 133.
[xviii] - المصدر نفسه، ص 133. والإرقال والرسيم ضربان من السير السريع للإبل والخيل. انظر مادتي: (رَقَلَ) و(رَسَمَ). عند ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرّم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت).

الشام والأُبلستين سلبيا على ديار الكفر والإلحاد، حتى البعيدة منها فإنّها ستُمحى آثارها، وستصبح أطلالا بالية من الرُّعب، يقول العزازي:

وإنَّ ديارَ المارقينَ وإنْ نَأَتْ سَتَقوى مَغانيها وتَعفو رُسومُها ([xix])

وكان الأعداء ينهزمون، ويتوقفون عن القتال، عندما يسمعون أنّ الظاهر بيبرس متوجّه نحوهم، أو أنه موجود في البلد التي يريدون الإغارة عليها ([xx])، وما ذاك إلا بسبب رعبهم الشديد منه لأنه شجاع لا يهابهم.

ويذكر الشهاب العزازي أنَّ ديار الكفر هذه قد وصل إليها النّاعي الذي أخبر أهلها بهزيمة المغول والفرنجة، وموت قتلاهم، فبدأوا يبكون فُرادى ومَثْنى، وأنَّ أخبار المعركتين: (الأبلستين وفتح قيسارية) التي انتشرت، وذاعت بين الناس بانتصار المسلمين وهزيمة الفرنج والتتار والروم معا، شغلت هذه البلاد وزعزعت أمنها واستقرارها، يقول:

أتاها رسولٌ بالنَّعيِّ فَأُرسِلَتْ منَ القومِ إحدانِ الدّموعِ وتومُها ([1])

وإنَّ حديثَ الوقعتَيْنِ الذي سَرى سَيُقعِدُها مِنْ هَولِهِ وَيُقيمُها ([2xxi])

ثانيا: صورة الظاهر بيبرس

لقد بدت صورة الظاهر بيبرس جلية في القصائد الأربعة التي امتدحه فيها العزّازي، إذ قدّم لنا العزّازي صورة الظاهر بيبرس الجهادية، وصورته الإدارية.

بداية سأتناول في هذا المحور صورته الجهادية؛ لأنّ صورة الظاهر بيبرس الجهادية طغت في قصائد العزازي على صورته الإدارية، وسأتحدث عن ملامح الصورة الجهادية للظاهر بيبرس التي جلّاها العزازي في قصائده.

الملمح الأول: الدافع الديني للجهاد.

فالظاهر بيبرس كان هدفه من الجهاد إعلاء كلمة الله، ونصرة الدين الإسلامي، والقضاء على دين الشرك.

لذا فقد صوّر العزازي الظاهر بيبرس بالقائد المسلم المجاهد، الحامي للدين الإسلامي بيقظته ونشاطه، وقد شيَّد بسيفه بناء الدين الإسلامي، فقوَّض أركان دين النصارى، ودين الكفرة عَبَدَةِ الأوثان، وغيرته على الدين هذه جعلته يقضي على الشرك، ويستأصل شأفته، كأنه لم يكن، وكذلك ألبس ديار الشرك ثوب الدمار والذّل، فأصبحت قبيحة المنظر بعد أن كانت مأهولة بأهلها عامرة بهم. يقول:

فاسلَمْ أبا الفَتْحِ للإسلامِ تكلؤه بناظرٍ ما لهُ مَيْلٌ إلى الوَسَنِ

[xix] - العزازي: ديوانه، ص 133.

[xx] - انظر: ابن عبد الظاهر في: الروض الزاهر في أخبار الملك الظاهر، ص 356، 362

[1] - معنى كلمة (الإحدان): الآحاد، لسان العرب، مادة (أحد). والتوم: التوائم التوأم، لسان العرب، مادة: (تَأَمَ).

[2] - العزازي: ديوانه، ص133.

وَشُدْتَ بالسَّيْفِ رُكنَ الدّينِ فانهَدَمَتْ أركانُ دينِ بني النّاقوسِ والوَثَنِ
حَمِيَّةٌ دَرَسَتْ رَسْمَ العِدى ومَحَتْ ذِكراهُ حتّى كأنَّ الشّركَ لَمْ يَكُنِ
كانَتْ ديارُهُمُ بالأمسِ عامرةً واليَومَ مُقفِرةَ الأطلالِ والدّمَنِ
كَسَوْتَ جِدَّتَها ثَوْبَ البِلى فَغَدَتْ قبيحةً بَعْدَ ذاكَ المَنْظَرِ الحَسَنِ ([xxii])

الملمح الثاني: القائد الشجاع ذو العزيمة القوية الصلبة واسع الفتوحات، كثير الانتصارات على الأعداء، مولع بالجهاد وبتسيير الجيوش إلى ساحات الوغى.
من ذلك ما تحدث به العزازي عن الظاهر بيبرس في قصيدته التي يمتدح فيها الظاهر بيبرس، ويسجل انتصاره على الفرنجة في معركة أنطاكية، فيذكر أنّ الظاهر بيبرس كل يوم عنده فتح، وكل يوم عنده نصر جديد، وبشائر جديدة عبر البريد، وهو صاحب عزم
تقصّر عنه الخيول، وعزمه وحرصه يضعف عنهما الحديد، وجياده تطارد الروم في ديارهم، وفي الوقت ذاته ترد إلى نهر الفرات لتشرب منه، وهو مغرم بالجهاد طاعة لله تعالى، ويعشق الحرب، يقول:

كُلَّ يَوْمٍ فَتحٌ ونَصْرٌ جديدُ وكتابٌ مُبَشرٌ وبريدُ
واعتزامٌ تكلُّ منهُ المذاكي واهتمامٌ يُفَلُّ منهُ الحديدُ
وجيادٌ لها بقاصيةِ الرّو مِ طِرادٌ وبالفُراتِ ورودُ
مُغرَمٌ بالجهادِ في طاعةِ اللّ هِ وبالحربِ مُستهامٌ عميدُ
وشُجاعٌ يَذُبُّ عَنْ حَوزَةِ الدّي نِ ويحمي بسَيْفِهِ ويذودُ([xxiii])

وقد لجأ العزازي إلى توظيف الصور الكنائية بشكل لافت للنظر وهو يتحدث عن الظاهر بيبرس ويجلّي صورته في القصائد التي امتدحه فيها، من ذلك قوله:

وكئيبٌ بالبيضِ والسُّمْرِ إذ تَدْ مى خُدودٌ لها وتُثنى قُدودُ ([xxiv])

فالعزازي يقول في هذا البيت إنّ الظاهر بيبرس حزين؛ لأنّ السيوف تدمى خدودها في الحرب، وكذلك الرماح تُثنى وتُعوَجُّ أثناء القتال. وهذا كناية عن شدة المعركة الدائرة وشراستها.

ويذكر العزّازي أنّ الظاهر بيبرس أينما توجّه له جنود في الأرض وجنود في السماء تحارب معه، يقول:

[xxii] - العزازي: ديوانه، ص 125.
[xxiii] - العزازي: ديوانه، ص128.
[xxiv] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وَلَهُ حيثما توجَّهَ في الأر ضِ جنودٌ وفي السَّماءِ جنودُ ([xxv])

فجنود الأرض كناية عن المحاربين في جيشه، أما جنود السماء التي تحارب معه فيكنّي بهم عن الملائكة.

الملمح الثالث: الظاهر بيبرس صاحب هيبة وسطوة على قلوب الأعداء، تخافه الأعداء، ويرتعدون منه، وما ذاك إلا لشدة بأسه وشجاعته.

من ذلك ما ذكره العزازي في قصيدته الرابعة التي يمتدح فيها الظاهر بيبرس، فيذكر أنّ الظاهر بيبرس إذا نظر إلى أمر بعيد عنه فيصبح قريبا منه، وهذا كناية عن أنه لا يصعب عليه شيء، فهو قادر على تحقيق الأهداف الصعبة بعيدة المنال، وإذا نزل في منطقة مخيفة واستقرّ فيها، فإنّها تصبح آمنة لا خطر فيها، وهذا كناية عن أنه رجل مهيب الجانب، يخاف منه العدو، ويبتعد عنه، يقول:

وإنْ لحَظَ البعيدَ غدا قريبا وإنْ سَكَنَ المَخوفَ غدا أمينا ([xxvi])

وكذلك إذا خفقت رايات جيش الظاهر بيبرس المنصور، تتجمد رايات أعدائه وتسكنُ، وهذا أيضا كناية عن هيبة الظاهر بيبرس، وخوف أعدائه منه، يقول العزازي:

وإنْ خَفَقَتْ لهُ أعلامُ نَصْرٍ غَدَتْ حرَكاتُ أعداهُ سُكونا ([xxvii])

وقد أكد هذا الأمر ابن عبد الظاهر صاحب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، إذ ذكر أن أعداء الظاهر بيبرس كانوا ينهزمون، ويتوقفون عن القتال عندما يسمعون بأنه متوجه لهم، وأنه موجود في البلد الذي يريدون الإغارة عليها، وأنهم كانوا يخافون من ذكر اسمه. ([xxviii])
أمّا عن صورة الظاهر بيبرس الإداريّة، فقد جلّاها الشهاب العزازي بوضوح في قصائده التي امتدح فيها الظاهر بيبرس، فقد بيّن العزازي أنّه بقدوم الظاهر بيبرس وبتوليه الحُكْم، ظهرت واضحة للعَيان حِكَمُهُ التي يُستضاءُ بها في الأحداث المُظلمة والخطوب الشديدة، فعاشت رعيته في ظلّ نِعَمه، وفي ظل رخاء العيش الذي تحقّق بفضله، كما أنه أحسن إدارة الأمور في دولته، وساس رعيته بيقظة وحسن تخطيط، فأمنت رعيته، وَصِينَت النّساء، فأسلَمَهُ الناس زمام الأمر وقيادة السفينة، فخضع له كلّ شيء، وأصبح طَوْعَ يديه، فصلُح النّاس، وحُلَّتْ مشاكلهم، وقُضي على الأمراض الاجتماعية التي كانت مستفحلة. يقول العزّازي:

لَقَدْ ظَهرَتْ "بالظّاهرِ" الحِكَمُ التي أضاءَ بها للحادثاتِ بَهيمُها
شَكَرْنا أبا الفَتحِ الجميلِ ثناؤهُ على أنْعُمٍ في ظِلّهِ نستَديمُها

[xxv] - المصدر السابق، ص128.
[xxvi] - العزازي: ديوانه، ص 141.
[xxvii] - المصدر السابق ص 141.
[xxviii] - انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في أخبار الملك الظاهر، ص 362 -361.

تملَّكَ أعناقَ الوَرى مُتَيَقظاً فَنامَتْ رَعاياهُ وحِيطَ حريمُها
وأَلقَتْ إليهِ النّاسُ فَضْلَ قيادِها ودانَ لَهُ مُعوَجُها وقَويمُها
فداوى قلوباً عَزَّ مِنها شِفاؤها بإحسانِهِ أَو صَحَّ منها سَقيمُها ([xxix])

كما صور العزازي الظاهر بيبرس بأنه صاحب ملك واسع أسّس دولة قوية، وامتد ملكه فشمل جميع أصقاع الأرض. من ذلك يقول:

ذو دَولةٍ أصبَحَتْ منْ عُظْمِ جِدَّتِها تهتزُّ كالسَّيْفِ لا تهتَزُّ كالغُصُنِ
لَهُ البسيطانِ بَعْدَ اللهِ حاطَهما بالمَشرفيّةِ والخَطّيَّةِ اللُّدُنِ([xxx])

فالدولة التي أسّسها الظاهر بيبرس كما تبدو من خلال هذين البيتين دولة عظيمة، قوية تهتزّ اهتزاز السّيْف، واسعة الأرجاء، خضع لملكه البرُّ والبحر، وحماهما بالسيوف والرماح.
وقد ذكر ابن عبد الظاهر أنّ الظاهر بيبرس تقلّد حكم الديار المصرية، والبلاد الشامية، والديار البكرية، والحجازية واليمنية والفراتية ([xxxi]).
كما تفوّق الظاهر بيبرس على ملوك عصره، وساد بملكه وعظمته على الملوك والسلاطين القدماء، يقول العزازي:

وفاقَ عُلاً ملوكَ العَصْرِ طُرّا وسادَ على الملوكِ السا لفينا ([xxxii])

ومن الملوك والقادة السابقين الذين تفوق عليهم الظاهر بيبرس بعظمة ملكه وشجاعته: عاد بن شدّاد وهو أحد ملوك العرب البائدة، وأبوه شدّاد أيضا، كما تفوّق الظاهر بيبرس على ملوك الفرس والروم، وعلى ملوك اليمن القدماء، وعلى ملوك الأمم السابقة في القوّة وسِعَة المُلك، بل إن الظاهر بيبرس بسيرته الجليلة وشجاعته التي لا مثيل لها أخمد ذكر عمرو بن ودّ (أحد فرسان قريش المعدودين)، وعمرو بن معدي كرب (الشاعر والفارس المشهور)، وبسطام بن قيس بن مسعود الشيباني (سيّد شيبان يُضرب به المثل في فروسيته في الجاهلية)، وعنترة العبسي الشاعر الفارس ابن الأمة السوداء، فمن المستحيل أن تجد نظيرا أو شبيها للظاهر بيبرس كما يقول العزازي:

شأى عاداً وشدّادا وكسرى وقَيْصرَ والتَّبابيعَ القُرونا
فَدَعْ عَمرَو بنِ وُدّ وابنَ مَعدي وبُسطاما وَعنترةَ الهَجينا

[xxix] - العزازي: ديوانه، ص 131.
[xxx] - المصدر نفسه، ص 126.
[xxxi] - انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في أخبار الملك الظاهر، ص 104.
[xxxii] - العزّازي: ديوانه، ص135 .

ولا تطلبْ "لبيبرسٍ" نظيرا فذلكُمْ بعيدٌ أنْ يكونا ([xxxiii])

فالعزّازي من خلال الأبيات السابقة قدّم لنا صورة بهية عن الظاهر بيبرس، بدا من خلالها رجل دولة قويّ من الطّراز الأول، شُجاع، واسع الملك لا نظير له بين الملوك. فتداخلت في هذه الأبيات صورة الملك القوي الذي يمتلك دولة قوية، وصورة القائد الشجاع في المعارك.
وواضح أيضا من خلال الأبيات السابقة التناص التاريخي، من خلال ذكر العزازي أسماء العديد من الشخصيات التاريخية المشهورة.
وقد صوّر العزازي الظاهر بيبرس بالملك الأسطورة، فائق القدرة، الذي حقّق المعجزات، وحقّق كل مستحيل، من ذلك قوله:

أبو الفتحِ الذي في كُلِّ يومٍ يُرينا مِنْ عجائِبِهِ فُنونا ([xxxiv])

وقوله عن الظاهر بيبرس أيضا:

وبالسّلطانِ "رُكنِ الدّينِ" نِلْنا مآربَنا وسُدْنا العالمينا

وطاولْنا بِهِ نَجمَ الثُّرَيّا وقَصَّرْنا بهِ الغيثَ الهَتونا ([xxxv])

ثالثا: صورة جيش الظاهر بيبرس.
لقد تحدث الشهاب العزازي عن جيش الظاهر بيبرس في قصائده الأربع التي امتدحه فيها، مشيدا بهذا الجيش، ومقدما له صورة مشرقة، مكتملة الملامح والأركان. وبدت ملامح صورة جيش الظاهر بيبرس على النحو الآتي:
- لقد صوّر الشهاب العزازي جيش الظاهر بيبرس بأنه جيش عظيم جرّار كثير العدد، من ذلك ما ذكره في القصيدة الثالثة التي وصف فيها هزيمة التتار، بأنّ هذا الجيش تزدحم به السهول والصحاري والجبال وذلك كناية عن كثرة عدده، يقول:

وجيشٌ إذا حَلَّ القضاءُ تضايَقَتْ سهولُ الفيافي دونَهُ وحُزومُها ([xxxvi])

وفي القصيدة الثانية التي يتحدث فيها العزازي عن فتح أنطاكية، يصف جيش الظاهر بيبرس العظيم بالغمام، لم تسعه الأرض، وكذلك كادت الجبال تهتز وتتحرك من تحته لضخامته، وصوّر لمع سيوف جند الظاهر بيبرس بالبروق، وصوّر حركة الجند وعدّتهم، وأصواتهم وقت الصباح بالرعود وذلك لكثرة عددهم، يقول:

جِحْفَلٌ كالغَمامِ ضاقَتْ بهِ الأَرْ ضُ وكادَتْ مِنهُ الجبالُ تميدُ

فَكَأنَّ الصِّفاحَ فيهِ بُروقٌ وكأنَّ الصَّباحَ فيهِ رُعودُ ([xxxvii])

[xxxiii] - العزازي: ديوانه، ص 136.
[xxxiv] - المصدر نفسه، ص 135.
[xxxv] - العزازي: ديوانه، ص 141.
[xxxvi] - المصدر نفسه، ص 131.

ويُلاحظ على العزازي أنّه يوظف التشبيه المركب المستمدّ من عناصر الطبيعة الصامتة أثناء وصفه جيش الظاهر بيبرس، كما في البيت الثاني. ومن توظيف العزازي التشبيه المركب في وصف جيش الظاهر بيبرس، تصويره جنود جيش الظاهر بيبرس الذين حموا برماحهم مدينة الفسطاط، بالأسود التي تحمي عرينها وتدافع عنه، يقول:

حَمَيْنا بالقَنا "فُسطاطَ مِصْرٍ" كما تَحمي الضَّراغمةُ العَرينا [xxxviii]

ويصور جيش الظاهر بيبرس الكثير العدد المتتابع، بالسحب، وبسيل الماء المتدفق، والخيول المسرعة بالبرق الخاطف، والمقاتلين في الليل أقمارا وكواكب نيّرة، والرّماح نجوما، يقول:

سحائبُ سَيْلٍ والخيولُ بروقُها وأقمارُ لَيْلٍ والعوالي نُجومُها [xxxix]

ونلاحظ أنَّ العزازي حشد في هذا البيت خمسة تشبيهات متتالية وهذا ما يُطلق عليه غزارة الصورة الشعرية.

- وصور الشهاب العزازي أيضا جنود جيش الظاهر بيبرس بالرجال الشجعان، شديدي البأس، يفتكون بالأعداء وينالون منهم.

من ذلك قوله عن جنود الظاهر بيبرس عندما هاجموا مدينة "أنطاكية":

هَجَمَتْها الإسلامُ والنَّجمُ قَدْ غا بَـ وقَدْ لاحَ للصَّباحِ عَمودُ

بسيوفٍ تَفري الدّروعَ فلا يُمْ نَعُ منها المَوضونُ والمسرودُ [4]

جَرَّدوها منَ الغُمودِ وعادوا وعَليها منَ الدِّماءِ غُمودُ [xl]

فالعزازي في هذه الأبيات يذكر أنَّ جند الظاهر بيبرس مقاتلون أشداء، يحملون سيوفا حادّة قاطعة، تشقّق دروع العدوّ التي يلبسونها، وقد استلوا هذه السيوف من أغمادها وعادوا بها بعد المعركة وقد غُمدت بدماء الفرنجة.

ويظهر العزازي من خلال التشبيه المركب جرأة وشجاعة جُند جيش الظاهر بيبرس عندما أطبقوا على الفرنجة، فيصفهم بأنهم مجموعة من شجعان الأتراك تهوى لقاء الأعداء، مثلما يهوى المشتاق لقاء وطنه، وهم لا يكرهون الحروب ولا تبعاتها، لأنها تقضي على الشرك وتحصده، يقول:

طافَتْ بهِم مِنْ كُماةِ التُّرْكِ طائفةٌ تَهوى اللِّقاءَ هَوى المُشتاقِ للوطَنِ

لا يكرهونَ حروبا لا وَلا فِتَناً عِلْماً بأنَّ حصادَ الشِّركِ في الفِتَنِ [xli]

[xxxvii] - العزازي: ديوانه، ص 129.

[xxxviii] - المصدر نفسه، ص 139.

[xxxix] - المصدر نفسه، ص 131.

[4] - الموضون والمسرود: صفتان للدّروع، والموضونة: الدّرع المُقارَبَةُ النَّسْج المُداخلَةُ الحَلَقُ بعضها في بعض. انظر: لسان العرب، في مادتي: (وَضَنَ) و (سَرَدَ).

[xl] - العزازي: ديوانه، ص 129.

ويجرّد العزازي من نفسه شخصا آخر ويخاطبه مفتخرا بشجاعة جند الظاهر بيبرس: اسألْ عن شجاعتنا وبأسنا علوج الأرمن الأشدّاء في مدينة سيس (التي تم فتحها سنة 664 هجرية)، وكذلك اسأل مقاتلي الفرنجة الأشدّاء عن بأسنا في معركة أنطاكية (التي تم فتحها سنة 666 هجرية). يقول:

فَسَلْ عَنْ حَربِنا أعلاجَ "سيسٍ" وأنطاكيةً لمّا لَقونا([xlii])

ويوظف العزازي الصورة التراثية من خلال الاستعارة التصريحية في معرض وصفه المقاتلين المسلمين في معركتي " سيس" و "أنطاكية" بأنهم أسود وذلك لشجاعتهم، وذكر أيضا أنّ أظافرهم كانت بمثابة سيوف أثناء القتال تصقلها وتجلوها رقاب الأعداء إذا ما صدئت، يقول:

لقُوا أُسْداً أظافرُها سيوفٌ صَياقِلُها الرِّقابُ إذا ما صَدينا ([xliii])

ويظهر العزّازي شدّة بأس مقاتلي جيش الظاهر بيبرس، وفتكهم بجيوش المغول، وإثخانهم فيهم، وإراقتهم دماءهم، فيقول:

وقاتَلْنا جيوشَ المُغْلِ حَتّى شَفَيْنا مِنْهُمُ الدّاءَ الدَّفينا

بِرَمْيٍ مِنْ سِهامٍ خارقاتٍ نشُقُّ بها مِنَ الحَدَقِ الجُفونا

وَطَعْنٍ مِنْ أسنَّتِنا دِراكاً نَفُلُّ بها الجَواشِنَ والغُضونا

وَضَرْبٍ مِنْ سيوفٍ قاطِعاتٍ نَقُدُّ بها الأياطِلَ والمُتونا([xliv])

فالعزازي يبين في هذه الأبيات على لسان المقاتلين بأنّ قتل المغول والفتك بهم قد شفى الداء الدفين الكامن في قلوبنا، وكذلك فرّغ أحقادنا التي كانت مكبوتة في قلوبنا ونفوسنا أيضا، ويتابع: لقد رمينا هؤلاء المغول بالسهام الخارقة القوية التي شقّتْ جفونهم واخترقت عيونهم، وكان طعن هؤلاء المغول برماحنا يقع متتابعا ممّا أدى إلى تكسّر دروعهم، وكنا نضرب بسيوفنا الحادّة القاطعة فنشقّ بها بطون وظهور الأعداء.

- وقد صوّر العزازي أيضا جيش الظاهر بيبرس بأنه جيش مُنتصر، قدد حقّق انتصارات عديدة متوالية سريعة، وأحرز فتوحات عديدة على عدوه الفرنجي والمغولي، من ذلك قوله متحدثا بلسان جند الظاهر بيبرس: لقد نلنا الشّرف والسّيادة والحظ الأوفر، وكذلك حقّقنا النصر على أعدائنا، وتمكنّا من الفتح المبين، نتيجة للصراع الدائر مع عدونا في معركة المنصورة، يقول:

وَحُزْنا المَجدَ والقِدْحَ المُعَلّى وَنُلْنا النَّصرَ والفَتْحَ المُبينا([xlv])

[xli] - المصدر نفسه، ص 126.
[xlii] - المصدر السابق ص 139.
[xliii] - العزازي: ديوانه، ص 139.
[xliv] - المصدر نفسه، ص140. الأياطل: الخواصر، مفردها إطْل وأيطَل. انظر: لسان العرب، مادة (أطَلَ). والمتون: الظهور، انظر: لسان العرب، مادة (مَتَنَ).

ويذكر على لسان مقاتلي الجيش المسلم: إنّنا نصرنا الملك المظفّر قطز، فجعلناه ينتصر على الأعداء، ويكثر من قتل العُصاة الملحدين منهم، يقول:

وَظَفَّرْنا "المُظَفَّرَ" بالأعادي فأوقَعَ بالعُصاةِ المارقينا[xlvi]

ويرصد العزازي انتصارات هذا الجيش المتتابعة، فيأتي على ذكر أسماء المدن التي تمّ فتحها وانتزاعها من أيدي الأعداء، وبدا أنّ الانتصار فيها على العدو جاء بشكل متلاحق سريع، وفي ذلك يقول:

وَلَمْ نَترُكْ "بأَرسوفٍ"([2]) و"يافا"[3] وَ "قيساريةٍ" مِنْهُم قَطينا

وَعاجَلْنا " الشَّقيفَ"([4]) وَقَدْ أبَحْنا حِمى " صَفَدٍ"([5]) وَكانَ حِميً مصونا ([6])

ويذكر العزّازي أنّ الحديث عن وقائع ومعارك وانتصارات جيش الظاهر بيبرس يطول، لكنّه اختصر الكلام عنها، يقول:

وَلَوْ شُرِحَتْ وَقائِعُنا لَطالَتْ ولكنّا اختَصَرْنا ما لَقينا ([7])

- ويصور العزازي صراع جيش الظاهر بيبرس مع أعدائه على أنه صراع ديني، من ذلك يرى العزّازي أنّ الذي انتصر في معركة المنصورة هو دين التوحيد، والذين هُزموا هم المشركون، يقول:

وَبالمَنصورَةِ انتَصَرَتْ وَطالَتْ يدُ التَّوْحيدِ فَوْقَ المُشرِكينا ([8])

ويظهر البعد الديني عند العزازي في قوله على لسان مقاتلي جيش الظاهر بيبرس: لقد قاتلْنا العدو ببلاء كما أمرنا ديننا، واجتنبنا الخلاف والفرقة وكل ما يشق الصّف كما نهانا عن ذلك ديننا، يقول:

وَجاهدْنا العَدوَّ كما أُمِرْنا وجانَبْنا الخِلافَ كما نُهينا [xlvii]

[xlv] - العزازي: ديوانه، ص 139.
[xlvi] - العزازي: ديوانه، ص 140.
[2] - تمكّن الظاهر بيبرس من فتح أرسوف وهزيمة الفرنج سنة 663 هجرية. انظر: العيني: عقد الجمان، (ج-398 397/1).
[3] - تمّ فتح يافا على يد الظاهر بيبرس الذي هزم الفرنج سنة 666 هجرية، انظر: العيني: عقد الجمان، (ج2/ 19- 20).
[4] - فتحها جيش الظاهر بيبرس سنة 666 هجرية، انظر: العيني: عقد الجمان، (ج2/ 18- 19).
[5] - فتحها الظاهر بيبرس سنة 664 هجرية، انظر: عقد الجمان، (ج1/ 421).
[6] - العزازي، ديوانه: ص 139.
[7] - المصدر نفسه، ص 140.
[8] - المصدر نفسه، ص 138.
[xlvii] - العزازي: ديوانه، ص 139.

ويبرز البعد الديني أيضا عندما ذكر العزازي أنّه تحيط بالمقاتلين المسلمين ملائكةٌ بَرَرَة يحرسونهم ويحمونهم، وكان جبريل – عليه السّلام - في مقدمة هؤلاء الملائكة، يقول:

وأَبطالٍ مِنَ الأتراكِ شُوسٍ كُماةٍ في الحروبِ مُجَرّبينا

تَحُفُّ بِهِم ملائكَةٌ كِرامٌ كأَنَّ أمامَها الرُّوحَ الأمينا ([xlviii])

رابعا: صورة العدوّ.

لقد أبرز العزازي في قصائده الأربع التي يمتدح فيها الظاهر بيبرس صورة جلية واضحة للعدوين: الفرنجي والمغولي، بدا فيها العدو منهزما منكسرا لا حول له ولا قوة أمام جند جيش الظاهر بيبرس، وقد تشكّلت صورة العدو من خمسة مشاهد على النحو الآتي:

- مشهد الدماء النازفة من العدو وقتلهم والهزيمة التي حلّت بهم.

لقد صوّر العزازي من خلال هذا المشهد أن الدّماء سالت من الأعداء غزيرة سخينة على أرض المعركة، وأنّ هذه الدّماء روت الأرض، وكذلك اصطبغ وجه الأرض باللون الأحمر، وهذه صورة كنائية تدلّ على كثرة القتلى من العدو، وعلى إثخان جند الظاهر بيبرس بمقاتلي العدو، من ذلك ما ذكره العزازي في معركة قيسارية الشام بأنّ السيوف تلطخت بدماء العدو الفرنجي، فسالت دماؤهم على الأرض غزيرة، حتّي اصطبغ وجه الأرض باللون الأحمر، يقول:

وسالَتْ منَ البيضِ الصِّفاحِ دماؤُها على الأَرْضِ حَتّى احمَرَّ مِنها أديمُها ([xlix])

وأيضا قول العزازي عن العدو الفرنجي في معركة "سيس":

قَدْ قُلْتُ بَعْدَ ارتِواءٍ مِنْ دِمائِكُمُ: ما شاءَ مِنْ حادثاتِ الدَّهْرِ فَلْيَكُنِ([l])

ويذكر العزّازي أنّه كلّما تعطَّشت سيوفُ المقاتلين في معركة المنصورة ([3]) لدماء الفرنجة فإنها تفجّر في نحور الأعداء عيونا من الدّماء النازفة، يقول:

سُيوفٌ كُلَّما ظَمِئَتْ لِوِرْدٍ تُفَجِّرُ في نُحورِهِمُ عُيونا([4])

[xlviii] - المصدر السابق ص 140.

[xlix] - العزازي: ديوانه، ص 132.

[l] - المصدر نفسه، ص 127.

[3] - معركة المنصورة معركة حربية جرت أحداثها في مدينة المنصورة بين المقاومة الدفاعية المصرية الأيوبية وبين الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة (647) هجرية، وتعدّ هذه المعركة من أهم العوامل لبزوغ فجر الدولة المملوكية وأفول نجم الدولة الأيوبية، حيث نجح جنود الملك الصالح أيوب الذي اشتراهم بأعداد كبيرة، واهتم بتدريبهم عسكريا، حتى أصبحوا عماد جيشه في تحطيم آمال لويس التاسع وإفشال الحملة الصليبية السابعة. انظر: محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، ص 116-164.

[4] - العزازي: ديوانه: ص 138.

وكذلك صوّر العزّازي من خلال مشهد قتل جند العدو، جثث قتلى العدو المتناثرة على الأرض، بعد أن قتلهم جنود الظاهر بيبرس وفتكوا بهم، من ذلك يذكر العزازي أنّ السيوف والرماح الصلبة اغتالت نفوس الأعداء من الروم والتتار في معركة "الأبلستين"، أمّا أجسامهم فقد أكلتها الوحوش والطيور الجارحة، يقول:

فَلِلسَّيْفِ وَالرُّمْحِ الأَصَمِّ نُفوسُها وَلِلطَّيْرِ وَالوَحشِ المُثارِ جُسومُها ([5])

ومما يتصل بمشهد القَتْل الذي حلّ بالأعداء، يذكر العزازي أنّ أعدادا كبيرة من جنود العدو اجتثت رؤوسهم، وفُصِلت عن أجسامهم، يقول:

لَمْ يتركوا هامَةً مِنْ فَوقِ جُثَّتِها حتّى اشتَهَيْنا نرى رَأساً على بَدَنِ ([6])

ويقدّم العزازي صورة طريفة جميلة التصوير لما حلّ بجنود الفرنجة في معركة أنطاكية وقد أفناهم جند الظاهر بيبرس، فيذكر العزازي أنّه عندما غزا جند الظاهر بيبرس الفرنج كانوا نباتا، وعندما رجعوا من عندهم أصبحوا من فعل السيوف بهم نباتا محصودا، يقول:

وَغَزَوهُمْ وَهُمُ نباتٌ وآبوا وَهُمْ مِنْ شَبا السُّيوفِ حَصيدُ([li])

ويسلط العزازي الضوء على فكرة خوف العدو الشديد من مصير القتل والموت، فيذكر أنّ مَنْ قُتل من الروم والتتار في معركة "الأبلستين" وحُرم الحياة كان حظه سيئا، أمّا مَنْ هُزم وبقي حيا فقد فرح واغتبط؛ لأنه نجا من الموت، يقول:

وَسيءَ على فَقْدِ الحياةِ قَتيلُها وَسُرَّ بإدراكِ النَّجاةِ هَزيمُها ([lii])

وقد كانت النتيجة الطبيعية لمصير العدو الذي حلّ فيه القتل وسفك الدماء على يد جنود جيش الظاهر بيبرس الهزيمة في أرض المعركة، من ذلك يذكر العزازي أنّنا لم نغادر أرض معركة المنصورة إلا وقد خلّفنا وراءنا القتلى والجرحى والمتروكين على الأرض من جيش الفرنجة ينزفون ويتألمون، يقول:

وَلَمْ نَترُكْ بِعَوْنِ اللهِ إلّا قَتيلاً أوْ طَريحاً أوْ طَعينا ([liii])

ويذكر العزازي أنّه حينما هُزم الفرنجة في معركة المنصورة، تعالى صراخهم وبكاؤهم، وكانت نساؤهم تنوح على القتلى، وبدأت الأمهات اللواتي فقدْن أبناءهنّ يُصدرن أصواتا حزينة، فيها ألم وتحسّر على مَنْ قَضَوا في هذه المعركة، يقول:

وَلَمْ نَسمَعْ بِأَرضِ القَوْمِ إلّا بُكاءً أوْ نُواحاً أَوْ حَنينا ([liv])

---

[5] - المصدر نفسه، ص 132.
[6] - المصدر نفسه: ص 126.
[li] - العزازي: ديوانه، ص 129.
[lii] - المصدر نفسه، ص 132.
[liii] - المصدر نفسه، ص 138.

وبعد أن حلّت الهزيمة بالعدو الفرنجي في معركة سيس، يخاطب العزازي هذا العدو متشفيا بهم، وساخرا منهم قائلا: ذوقوا العذاب والذلّ والهوان، فهذا مصير من يعادي قَدَر الله وقضائه وإرادته، فلو عفوتم عفونا عنكم ولم نخنكم، لكنّكم أنتم الخائنون، وأنتم الذين بدأتم القتال، والبادئ أظلم، فلا تعتبوا على الزمن، بل لوموا أنفسكم، يقول العزازي في أبياته:

ذوقوا العَذابَ عذابَ اللهِ وامتُهِنوا وَمَنْ يُغالِبْ قَضاءَ اللهِ يُمْتَهَنُ

وَلَوْ عَفَوْتُمْ عَفَوْنا بَعْدَ مَقْدِرَةٍ وَلَمْ نَخُنْ وَكريمُ الْقَوْمِ لَمْ يَخُنِ

بَدَأتُمونا فَجازَيْناكُمُ عِوَضاً هذا بِذاكَ فَلا عَتْبٌ عَلى الزَّمَنِ([lv])

وكذلك بعد انتهاء معركة أنطاكية، وهزيمة العدو الفرنجي فيها، بدأت كل زوجة إفرنجية قُتل زوجها في المعركة تُعلن خبر وفاته، وهناك نساء إفرنجيات أُخريات كُنَّ يبكين على أزواجهن الذين قَضَوا في هذه المعركة، يقول العزازي:

وَكُلُّ حَليلَةٍ تَنْعي حَليلاً وَكُلُّ قَرينَةٍ تَبْكي قَرينا ([lvi])

ويصور العزازي في مشهد قَتل العدو والهزيمة التي حلّتْ به على لسان جُند الظاهر بيبرس، أنّنا كثيرا ما قاتلنا قادة جبابرة أشدّاء، واستطعنا أنْ نهزمهم فعادوا أذلاء مكسورين إلى أقوامهم، يقول:

وَكَمْ في الأَرْضِ جَبّارٍ عَنيدٍ أَعَدْناهُ ذَليلاً مُسْتَكينا ([lvii])

- مشهد الهروب من المعركة.

لقد صور العزازي من خلال هذا المشهد أنّ العدو سواء الفرنجي أم المغولي قد ولّى هاربا من المعركة وذلك بسبب جبنه، وبسبب شدة بأس جند الظاهر بيبرس في المعارك، من ذلك ذكر أنّ الفرنج في معركة "سيس" هربوا مذعورين غير ملتفتين لا إلى أحبائهم، ولا إلى أماكن سكناهم، يقول:

وَلّى الفِرَنْجُ على أَعقابِهِمْ هَرَبا لا يَعطِفونَ عَلى إِلْفٍ وَلا سَكَنِ ([lviii])

وكذلك ذكر العزّازي أنّ هناك مَنْ لام مَنْ فرّ مِن المعركة من أعداء الظاهر بيبرس من جنود التتار والروم في معركة الأبلستين، لكنّ الشاعر لا يلوم مَنْ فرّ مِن المعركة وذلك كنايةً عن شدّة المعركة وضراوتها، لذا فهؤلاء الأعداء هربوا وفقدوا عقولهم أيضا، لما واجهوه من بأس وشدّة جنود الظاهر بيبرس الذين كانوا أشبه بالجن في عزمهم وشدّة فتكهم بعدوهم، يقول:

[liv] - العزازي: ديوانه، ص 138.
[lv] - المصدر نفسه، ص 127.
[lvi] - المصدر نفسه، ص 140.
[lvii] - المصدر نفسه، ص 140.
[lviii] - العزازي: ديوانه، ص 126.

إذا لامَها مَنْ غابَ يَوْمَ فِرارِها فَإنّي عَلى إدبارِها لا ألومُها

رَأَتْ صُوَرا لِلإنْسِ في بَأْسِ جِنَّةٍ فَوَلَّتْ بِها أَقدامُها وَحُلومُها ([lix])

وذكر العزازي أيضا أنّ الفرنجة ولّوا الأدبار من أمام جيش الظاهر بيبرس في معركة "أنطاكية" بفعل ضراوة القتال، وهم ينزفون بسبب الطعنات التي تلقوها في بطونهم، يقول:

فَأعطونا ظُهورَهُمُ وَوَلّوا وَقَدْ أَدمى الحُسامُ لَهُمْ بُطونا ([lx])

ولم يقتصر هروب جنود العدو من المعركة كأفراد، بل كانت فرق كاملة من جيش العدو تفرّ من أمام الجيش المسلم، من ذلك يذكر العزازي أنّه عندما نازل الأبطال الأتراك الجيش المغولي في معركة "عين جالوت"، وهاجموه، تشتّت هذا الجيش المغولي، ففرّت فرقة من يسار الجيش المسلم، وفرّت أخرى من يمينه، يقول:

وأَبطالٍ مِنَ الأَتراكِ شُوسٍ كُماةٍ في الحُروبِ مُجَرَّبينا

فَوَلَّتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ يَساراً وَفَرَّتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ يَمينا ([lxi])

- مشهد جيش العدو الضَّخْم كثير العَدد شديد البأس.

لقد صوّر العزّازي جيش العدو بأنّه جيش جرّار ضخم كثير العدد، وصوّر مقاتليه بأنّهم مقاتلون أشدّاء ذوو بأس شديد؛ وذلك ليبيّن أنّ مقاتلي جيش الظاهر بيبرس، لم يكونوا يقاتلون جيشا عاديا، بل إنّهم تغلّبوا وانتصروا على جيش شديد البأس، كثير العدد، من ذلك يذكر العزّازي أنّ الفرنجة أتوا إلى معركة المنصورة كسيل الماء المتدفق من كثرة عددهم، حتّى ملأوا سواحل البحار، واكتظت بهم السّفن، يقول:

أَتَوْنا كَالأَتِيِّ إذا تَوالى وَقَدْ مَلَأوا السَّواحلَ والسَّفينا([lxii])

وفي بيت آخر ذكر العزازي أنّ الفرنجة توجّهوا إلى معركة المنصورة بجيش ضخم كثير العدد، سدّ الطّرق، وملأ الجبال والسهول، يقول:

بِجَيْشٍ سَدَّ أقطارَ الفيافي وَقَدْ مَلَأَ السّهولَةَ والحَزوُنا([lxiii])

ويتحدث العزّازي أيضا عن قوّة جيش العدو وكثرة عدده، فيذكر أنّه قد اشتدّ بأس الأعداء (المغول والروم معا)، وبدأ يستعدّ لمعركة "الأبلستين" جبابرة جنود العدو المغولي ومتكبروه، فتقدّم المغول بجيش عظيم، مقاتلوه أشدّاء شجعان، حجب هذا الجيش الأرض من كثرة عدده، حتّى ضاقت بهم

[lix] - المصدر نفسه، ص 132.
[lx] - المصدر نفسه، ص 139
[lxi] - العزازي: ديوانه، ص 140.
[lxii] - المصدر نفسه، ص 137.
[lxiii] - المصدر نفسه، ص 137.

الأرض التي هم عليها، وكانت أحاديث وكلام جنود التّتر تجلجل وترتفع عاليا متحدثين باللغة الفارسية، فيردّ عليهم بأصوات عالية وبجلجلة قوية جنود الروم، يقول:

إلى أنْ عَلا أرْضَ "البسلتين" بِالقَنا وَأَوْشَكَ أَنْ تُلْقي الخُصومَ خُصومُها

وَقَدْ حَشَدَ الأَعداءُ واشتَدَّ بَأْسُها وَسارَ بِها جَبّارُها وَغَشومُها

فجاءتْ بِجَيْشٍ يَحْجِبُ الأَرْضَ كَثْرَةً أُسودُ شَرَيً قَدْ ضاقَ عَنْها صَريمُها

إذا زَمْجَرَتْ بالفارِسِيَّةِ "مُغْلُها" تُجاوِبُ هاتيكَ الزَّماجِرَ "رُومُها"[lxiv]

- مَشْهد الأسْر والسَّبْي

لقد صوّر شهاب الدين العزّازي قادة العدو وهم ينساقون صاغرين مكبلين بالقيود وقد وقعوا في أسر جيش الظاهر بيبرس، أما فتيات العدو ونساؤهم فأُخذن سبايا، إذ وقعْن في قبضة مقاتلي جيش الظاهر بيبرس، من ذلك يذكر العزّازي أنّ الجيش المسلم عاد من معركة المنصورة محمّلا بالغنائم، وبالسبايا من النساء الفرنجيات، وكان بحوزته أيضا الأسرى من قادة الفرنجة وهم مكبّلون بالقيود الحديدية، يقول:

وَعُدْنا بالغَنائِمِ والسَّبايا وأُبْنا بالمُلوكِ مُصَفَّدينا [lxv]

وبعد انتهاء معركة "سيس"، يخاطب العزّازي الفرنجة قائلا: انظروا إلى ملوككم، لقد أصبحوا أسرى ينقادون صاغرين، وقرابينكم أضحت في الأسر أيضا، يقول في قصيدته الأولى:

هذي مُلوكُكُمُ تَنْقادُ صاغرةً وَذي قَرابينُكُمْ تَنْساقُ في قَرَنِ[lxvi]

وفي معركة أنطاكية يذكر العزّازي أنّ حال الفرنجة في أرض المعركة كان على النحو الآتي: هناك أسير مكبّل بيمينه، وجريح ساقط على الأرض مُمرّغ وجهه في التراب ينزف دما، يقول:

فَأسيرٌ تُغَلُّ مِنْهُ يَمينٌ وَعَفيرٌ يُحَزُّ مِنْهُ وَريدُ [lxvii]

ويتحدث العزازي عن سبي الفتيات الفرنجيات وأسر الأبناء من الفرنجة معا في أحد الأبيات التي يبرز فيها جُبْن هؤلاء الأعداء، إذ يبيّن أنّ هؤلاء الفرنجة قد بخلوا بتقديم نفوسهم في المعركة بسبب الخوف من الموت، لكنّهم جادوا ببناتهم اللواتي أُخذْن سبايا، وبأبنائهم الذين أُسروا في المعركة، يقول:

وَضنّوا بالنُّفوسِ حِذارَ مَوْتٍ وجادوا بِالبناتِ وَبِالبَنينا [lxviii]

[lxiv] - العزازي: ديوانه، ص 132.
[lxv] - المصدر نفسه، ص 138.
[lxvi] - المصدر السابق، ص 127.
[lxvii] - العزازي: ديوانه، ص 129.

وقد شمل السّبي الفتيات العذارى والنساء المتزوجات معا، لذا يذكر العزّازي على لسان جنود الظاهر بيبرس: بأنّنا قاتلْنا ملوك الروم وعدنا من المعركة وقد أسرْنا رجالهم، وسبيْنا نساءهم المتزوجات، وفتياتهم العذارى، يقول:

وَعُدْنا بالرّجالِ وَهُمْ أُسارى وَبِالنُّسوانِ أَبكاراً وَعُونا ([lxix])

وبعد انتهاء معركة "سيس"، يخاطب العزّازي العدو الفرنجي: لقد سُبيتْ بناتكم، وبيعت بأبخس الأثمان بأعداد كبيرة، وذُلّت وأُهينتْ، يقول:

بِيعَتْ بَناتُكُمُ في كُلِّ ناحيةٍ بَيْعَ الهَوانِ بِمَنْزورٍ مِنَ الثَّمَنِ ([lxx])

- مَشهد القوّة والازدهار في الماضي والضَّعف والانهيار في الحاضر. لقد صوّر العزازي في قصائده التي امتدح فيها الظاهر بيبرس العدو في حالتين مختلفتين: حاله قبل اندلاع المعارك، حيث جنوده أقوياء مدجّجون بالسّلاح يهددون المسلمين
ويتوعدونهم، ومدنهم عامرة مزدانة وآهلة بأهلها، وحاله بعد انتهاء المعارك وقد هُزموا وضعفوا وحلّ بهم القتل وأهينوا، وأصبحت بيوتهم مدمّرة خربة أشبه بالأطلال الدارسة.
من ذلك يتساءل العزّازي بعد انتصار المسلمين على الفرنجة في معركة "سيس": أين ذهبت الصّقور والأسود؟ يبدو أنّ الأعداء كانوا يقولون: إنّنا نحن الصّقور، وعدوّنا بُغاث، ونحن أسود، وأعداؤنا حمير، يقول:

أَيْنَ البُزاةُ التي تَدْمى مَخالِبُها مِنَ البُغاثِ وَأَيْنَ الأُسْدُ لِلْأُتُنِ ([lxxi])

وأيضا يذكر العزّازي أنّ ملك الفرنج (ريدا فرنس) ([lxxii]) تقدّم بجيشه وهو يحمل أحقادا دفينة على المسلمين، وأقسم أنْ يقضي على الشيوخ والأطفال، حتّى على الأجنّة من المسلمين، لكنّ سيوف جُند المماليك وبأسهم جعلاه يحنث بيمينه، فلم يبرّ بها، يقول:

وَ"ريدافَرْنَسَ" يَقْدُمُهُم بِصَدْرٍ ضَغينٍ يا لَهُ صَدْراً ضَغينا
وَأَقسَمَ لَمْ يَدَعْ شَيْخاً كَبيراً مِنَ الإسلامِ أَو طِفْلاً جَنيْنا
يَميناً أَحنَثَتْهُ وَأَحْوَجَتْهُ سُيوفُ "الصّالحيَّةِ" أَنْ يَمينا ([lxxiii])

[lxviii] - المصدر نفسه، ص139.
[lxix] - المصدر السابق، ص 141.
[lxx] - المصدر نفسه، ص 127.
[lxxi] - العزازي: ديوانه، ص 126.
[lxxii] - (الملك ريدافرنس المعروف بالفرنسيس، قصد مصر، وتملّك دمياط سنة 647 هجرية، وفي أثناء ذلك توفي الملك الصالح نجم الدّين أيوب، وتملّك توران شاه، ثم قُتل وأُحيط بدمياط، وأُطلقَ بعد تسلّم دمياط، فحاول العودة إلى مصر أيّام الظاهر بيبرس، فغزا أولا تونس وبها قُتل سنة 661 هجرية). انظر: العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار، ج 2، حاشية ص 149.
[lxxiii] - العزّازي: ديوانه، ص 137.

ويبرز العزازي صورة جلية واضحة للجيش المغولي في الحالتين: الأولى: قبل اندلاع المعركة، والأخرى: عند بدء المعركة واشتداد وطيسها، فعندما بدأ جبابرة المغول ومتكبروه يستعدون لمواجهة جيش الظاهر بيبرس في معركة "الأبلستين"، تقدّموا بجيش عظيم، مقاتلوه أشدّاء شجعان، حجبوا الأرض من كثرة عددهم، حتّى ضاقت بهم الأرض التي هُم عليها، وكانت أحاديث وكلام جنود هذا الجيش المتألف من المغول والروم، تجلجل وترتفع عاليا متحدثين بلغات مختلفة، لكن عندما بدأت المعركة انقلبت حال هذا الجيش المغولي إلى أسوأ حال، فولى مقاتلوه الشجعان كثيرو العدد وهم ينزفون دما بعد أنْ هجم عليهم الظاهر بيبرس، وأدّى تصدي جُند الظاهر بيبرس الأتراك لهؤلاء المغول إلى انكسار ملوكهم وقادتهم وأبطالهم، وكذلك تلطّخت السيوف بدمائهم، فسالت على الأرض غزيرة، حتّى اصطبغ وجه الأرض باللون الأحمر، فقُتل وحُرم الحياة مَن كان حظه سيئا منهم ، أمّا مَنْ هُزم وبقي حيا فقد فرح واغتبط؛ لأنه نجا من الموت، وتناثرت جثث هؤلاء الأعداء على الأرض، بعد أن اغتالت السيوف والرماح الصلبة نفوسهم، أمّا أجسامهم فقد أكلتها الوحوش والطيور الجارحة، يقول:

إلى أنْ عَلا أرْضَ "البسلتين" بِالقَنا ... وَأَوْشَكَ أَنْ تُلْقي الخُصومَ خُصومُها

وَقَدْ حَشَدَ الأَعداءُ واشتَدَّ بَأْسُها ... وَسارَ بِها جَبّارُها وَغَشومُها

فجاءتْ بِجَيْشٍ يَحْجِبُ الأَرْضَ كَثْرَةً ... أُسودُ شَرَيً قَدْ ضاقَ عَنْها صَريمُها

إذا زَمْجَرَتْ بالفارِسِيَّةِ "مُغْلُها" ... تُجاوِبُ هاتيكَ الزَّماجِرَ "رُومُها"

فَشَدَّ عَلَيْها شَدَّةً ظاهريَّةً ... فَوَلَّتْ عَلى الأَعقابِ تَدْمى كُلومُها

وَأَلقَتْ عَلَيْها التُّرْكُ بَأْساً وَسَطْوَةً ... إلى أَنْ هَوَتْ أَقيالُها وَقُرومُها

وسالَتْ منَ البيضِ الصِّفاحِ دماؤُها ... على الأَرْضِ حَتّى احمَرَّ مِنها أديمُها

وَسيءَ على فَقْدِ الحياةِ قَتيلُها ... وَسُرَّ بإدراكِ النَّجاةِ هَزيمُها

فَلِلسَّيْفِ وَالرُّمْحِ الأَصَمِّ نُفوسُها ... وَلِلطَّيْرِ وَالوَحشِ المُثارِ جُسومُها ([lxxiv])

ويصف العزّازي حال مدن العدو قبل اندلاع المعارك، وحالها بعد اندلاع المعارك، فيذكر أنّه قد جاء الصّباح ومدينة "أنطاكية" كلّها شرك، وما أن انتهى الصّباح إلّا وأصبحت إسلامية تدين بدين التوحيد، ويذكر أيضا أنّ مدينة "أنطاكية" بالأمس كانت بيوتها قصورا مشمخّرة، والآن أصبحتْ قبورا لأهلها، يقول:

أَقبَلَ الصُّبْحُ وَهْيَ شِرْكٌ ... وَما أَدْبَرَ إلّا وَكُلُّها تَوْحيدُ

وَأَراها بالأَمْسِ كانَتْ قُصوراً ... عالياتٍ وَاليَوْمَ فَهْيَ لُحودُ ([lxxv])

[lxxiv] - العزازي: ديوانه، ص 132.

أمّا مدينة "قيسارية"، فقد ذلّتْ وهانتْ أسوارها بفعل حصار جيش الظاهر بيبرس المُحكم لهذه المدينة وإعمال السيف بها، وقد غادرها الظاهر بيبرس بعد انتهاء المعركة فيها مُهانة مُبتذلة، في حين أبدتْ تمنُّعا، وكانت عصية على النيل منها والهوان أثناء القتال، لكنّ الأمور بخواتمها، ويذكر العزّازي أنّ عهدي بمدينة "قيسارية" أنّها لا تقبل أنْ يبخسها أحد ثمنها أو حقّها، يقول:

وَحاطَتْ بقيساريّةِ الرّوُمِ خَيْلُهُ وَقَدْ هانَ مِنْها بالحُسامِ جَسيمُها

وغادَرَها بَعْدَ الإباءِ مُذالَةً وَعَهْدي بِها تَغلو عَلى مَنْ يَسومُها ([lxxvi])

يُلاحظ من استخدام العزازي ألفاظ عجز البيت الثاني، أنّه متأثر بمهنة التجارة التي امتهنها، إذ ذكرت في موضع سابق في هذا البحث أنّ الشاعر شهاب الدين العزّازي كان يعمل في تجارة الأقمشة. ([lxxvii]).

وعن مدينتي "سيس" و "أنطاكية" وما حلّ بهما، يذكر العزّازي على لسان مقاتلي جيش الظاهر بيبرس: لقد خلّفنا وراءنا ديار الأرمن في سيس، وديار الفرنجة في أنطاكية خربة مدمّرة مثل أطلال البيوت الدارسة التي عفا عليها الزمن، يقول:

وَخَلّفنا ديارَهُمُ خَراباً كَأَطلالٍ دوارسَ قَدْ بَلِينا ([lxxviii])

وعلى أية حال فإنّ الخطاب الشعري عند العزازي –في شتى مضامين قصائده التي يمتدح فيها الظاهر بيبرس– خطاب ديني، فهو يتحدث عن صراع ديني كان دائرا بين المسلمين من جهة، وبين أعداء الإسلام من فرنجة ومغول وأرمن من جهة أخرى، فخطابه عن بيبرس خطاب أممي بدافع الافتخار بالأمة الإسلامية، إذ اندمج العرب والأتراك والمماليك في هذا الصراع، وبدا العزّازي معتزا ومفتخرا بدينه الإسلامي، ومعجبا بالظاهر بيبرس كونه أحد أبرز قادة الفتح الإسلامي آنذاك.

"كما توجد تحليلات للخطاب تغلب عليها الصبغة الاجتماعية، وأخرى تغلب عليها الصبغة اللسانية، وثالثة تغلب عليها الصبغة النفسانية"([lxxix]).

فمن هنا يمكن القول: يكمن وراء الخطاب الشعري عند العزازي أنّه يلبي حاجة نفسية لديه، فهو معجب بالظاهر بيبرس، ويحبه، ولم يكن الدافع المالي وراء خطابه؛ لينال منه العطايا والهبات، لأنه كان تاجرا غنيا لا حاجة له للمال.

لذا ألحّ الشهاب العزازي على إبراز صور إيجابية لبيبرس، تجعل المتلقين يتأثرون به ويحبونه، فيلقى القبول النفسي لديهم، فإبراز صورة مثالية للبطل له هدف خفيّ وهو جعل الناس يحبون هذا البطل ويلتفون حوله، فالعزازي معنيّ بالقول: إنّ بيبرس هو الذي قاتل العدو وانتصر عليهم،

[lxxv] - المصدر نفسه ص 130.
[lxxvi] - المصدر السابق، ص 132.
[lxxvii] - انظر ص 2 في تمهيد هذا البحث.
[lxxviii] - العزازي: ديوانه، ص 139.
[lxxix] - مجموعة من المؤلفين: معجم تحليل الخطاب، بإشراف باتريك شارودو ودومينيك منغو، ترجمة عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث – دار سيناترا، تونس، 2008، ص 45.

وهو الذي دافع عن دين الله، وحمى بلاد المسلمين ونافح عنها، وهو الذي أثخن في العدو، في وقت كان العدو يتربص بالمسلمين، ويتوعدهم. فمن الطبيعي أن يحبّ الناس الظاهر بيبرس ويجلونه، فأخذ العزّازي في هذا المقام دور الإعلام، أو دور الناطق الإعلامي لإيصال رسالته هذه إلى النّاس.

الخاتمة

لقد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

- تعدّ صورة الفتح، وصورة جيش الظاهر بيبرس، وصورة العدو، جزءا أصيلا من صورة الظاهر بيبرس؛ لما لهذه الصور الثلاث من ارتباط وثيق بصورة الظاهر بيبرس، فالظاهر بيبرس هو الذي أحرز الفتوحات، وقاد الجيوش، وانتصر على الأعداء.
- لم يمدح العزازي الظاهر بيبرس طمعا في نيل أعطياته، بل كان الدافع وراء مدحه له الإعجاب به وببطولته، وبشجاعته، وقدرته على دحر الأعداء وهزيمتهم.
- كان العزازي تاجر قماش غنياً، وهذا ما جعله بعيدا عن دائرة التكسب بشعره، وبالتالي أبعده عن الكذب، والنفاق للممدوح.
- استخدم العزازي الصور الكنائية أثناء مدحه الظاهر بيبرس، والتشبيه المركب أثناء وصفه جيش الظاهر بيبرس.
- رسم العزازي للظاهر بيبرس صورة إدارية بالإضافة إلى صورته الجهادية العسكرية.
- برع العزازي في تصوير العدو من خلال مشهدي السبي والأسر الفرار من المعركة.

التوصيات

- تُعدّ قصائد شهاب الدين العزازي المدحية التي تناولتها في هذا البحث غنية من الناحية الفنية، إذ تعج بالصور البيانية، والأساليب اللغوية المختلفة، لذا أوصي الباحثين بدراسة هذه القصائد دراسة فنية مستقلة.
- تُعد الدراسات التي تتناول شعر الشهاب العزازي قليلة جدا، لذا أوصي الباحثين بدراسة شعره دراسة موضوعية فنية كونه أحد شعراء العصر المملوكي الأول المغمورين.
- يُلاحظ على شعر العزازي توظيف التراث الأدبي والتاريخي والديني في شعره، فقد تناصّ مع النصوص الشعرية القديمة، ومع القرآن الكريم، لذا أوصي بدراسة شعره لبيان مدى تأثره بالنصوص الشعرية التي سبقته، وبالنصوص الدينية وعلى رأسها القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- البوصيري، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد: ديوانه، تحقيق: محمد سيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، 1955م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه دكتور محمد محمد أمين، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ت). الجزء الأول والجزء الثالث.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، (د.ت)، الجزء الثالث والجزء السابع والجزء التاسع.
- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد: شرح المعلقات السبع، الدار العالمية، بيروت، 1992.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك:
- أعيان العصر وأعوان النصر، حققه د. علي أبو زيد، د. نبيل أبو عمشة، د. محمد موعد، د.محمود سالم، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1998، الجزء الأول.
- الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2000م.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، الرياض، الطبعة الأولى، 1976م.
- العزازي، شهاب الدين أحمد بن عبد الملك: ديوانه، حققه وقدم له الدكتور رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2004.
- العمري، ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010.
- العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، دار الكتب القومية، القاهرة، 2010م، الجزء الأول.
- أبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، تحقيق: د. محمد زينهم محمد عزب، والأستاذ يحيى سيد حسين، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، (د.ت).
- المقريزي، تقي الدين أبو العبّاس أحمد بن علي بن عبد القادر: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1987م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرّم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- اليونيني، موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدين، الهند. الطبعة الأولى، 1960.

ثانيا: المراجع:

-أماني بنت محمد بن عبد العزيز الشيبان: شعر شهاب الدين العزازي – دراسة موضوعية فنية، 633 – 710هـ، رسالة ماجستير، الرياض – السعودية، 2008م.

- محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الطبعة الأولى، (د.ت).

- مجموعة من المؤلفين: معجم تحليل الخطاب، بإشراف باتريك شارودو ودومينيك منغو، ترجمة عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث–دار سيناترا، تونس، 2008م.

Sources and References:

First: the sources

- Al-Busiri, Sharaf Al-Din Abu Abdullah Muhammad bin Saeed: Diwan Al-Busairi, checking: Muhammad Sayed Kilani, Library Company.
- Ibn Taghri Bardi, Jamal al-Din Abu al-Mahasin Yusuf:
- Al-Manhal Al-Safi and Al-Mutawfa after Al-Wafi, checked and put in his footnotes by Dr. Muhammad Muhammad Amin, the Egyptian General Book Organization, Cairo, (without publication date). Part one and part three.
- The shining stars in the kings of Egypt and Cairo, the Ministry of Culture and National Guidance, the Egyptian General Organization, Cairo, (without publication date), Part 3, Part 7, and Part 9.
- Al-Hamawi, Shihab Al-Din Yaqout bin Abdullah: Dictionary of Countries, Dar Sader, Beirut, (without publication date.).
- Al-Zawzani, Abu Abdullah Al-Hussein bin Ahmed: Explanation of the Seven Suspensions, Al-Dar Al-Alameya, Beirut, 1992
Al-Safadi, Salah al-Din Khalil bin Aybak: -
-Notables of the era and aides of victory, checked by D. Ali Abu Zaid, D. Nabil Abu Amsha, D. Muhammad Mawed, Dr. Mahmoud Salem, Dar Al-Fikr, Damascus, (first edition), 1998, Part One.
- Al-Wafi in Deaths, checking and care by Ahmad Al-Arnaout and Turki Mustafa, House of Revival of Arab Heritage, Beirut, Lebanon, (first edition), 2000 AD.
-Ibn Abdul-Zahir, Mohieddin: Al-Rawd Al-Zahir in the Biography of King Al-Zahir, checking and publication: Abdul-Aziz Al-Khuwaiter, Riyadh, (first edition), 1976 AD.
- Al-Azzazi, Shihab Al-Din Ahmed bin Abdul-Malik: Diwan Al-Azzazi checked and presented by Dr. Reda Rajab, Dar Al-Yanabi`, Damascus, (first edition), 2004.
- Al-Omari Ibn Fadlallah, Shihab Al-Din Ahmed bin Yahya: Paths of the Eyes in the Kingdoms of Al-Amsar, checking: Kamel Salman Al-Jubouri and Mahdi Al-Najm, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon, (first edition), 2010.
- Al-Aini, Badr Al-Din Mahmoud: The Contract of Al-Juman in the History of the People of Time, checked by Dr. Muhammad Muhammad Amin, National Book House, Cairo, 2010, Part one.
- Abu Al-Fida, Al-Mu'ayyad Imad Al-Din Ismail: Al-Mukhtasar fi Akhbar Al-Bishr, checking: Dr. Muhammad Zeinhom Muhammad Azab, and Professor Yahya Sayed Hussain, Dar Al-Maaref, Cairo, 1st Edition, (without publication date).
- Al-Maqrizi, Taqi Al-Din Abu Al-Abbas Ahmed bin Ali bin Abdul-Qader: Behavior to Know the Countries of Kings checked by Muhammad Abdul-Qadir Atta, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon, (first edition), 1987 AD.
-Ibn Manzoor, Jamal al-Din Muhammad ibn Makram: Lisan al-Arab, Dar Sader, Beirut, (without publication date).

- Al-Yunini, Musa bin Muhammad: The Tail of the Mirror of Time, Council of the Ottoman Encyclopedia Press, Hyderabad Al-Din, India (first edition), 1960.

Second: References:

- Amani Bint Muhammad Bin Abdul-Aziz Al-Shaiban: Poetry of Shihab Al-Din Al-Azzazi - Technical Objective Study, 633-710 AH, Master's Thesis, Riyadh - Saudi Arabia, 2008 AH**.**

-Muhammad Mustafa Zaida: Louis IX's campaign against Egypt and his defeat in Mansoura, the Supreme Council for the Sponsorship of Arts, Letters and Social Sciences, 1st Edition, (without publication date).

- A group of authors: A Dictionary of Discourse Analysis, under the supervision of Patrick Charaudeau and Dominic Mengo, translated by Abdelkader Al-Muhairi and Hammadi Samoud, Ministry of Culture and Heritage Preservation - Sinatra House, Tunis, 2008.